

المنهج التاريخي بين القديم والحديث

أ. منصور عبد الوهاب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي بلعباس

اعتبر المنهج التاريخي عند متبوعي الحركة النقدية أقدم منهج رافق الظاهرة الأدبية وحاول سبر أغوارها من خلال الوقوف على صيرورتها ضمن الإطار التاريخي، الذي يرى فيها القدرة على كشف كنه النص الأدبي في علاقته مع الظروف التي أوجدته والأحداث التي حددت مسارها هو بذلك يكاد يطابق ما اصطلح عليه عند البعض بتاريخ الأدب، إذ إنه يعقد صلات ووشائج متينة بين الأدب والتاريخ باعتبار الثاني عاملا مسهما في تلوينه وتغيير وجهته ليساير الأحداث الطارئة المستجدة، ومن ثم يمكن الاطمئنان إلى الرأي الراجح في جعل تاريخ الأدب خطوة أولى في سبيل استحداث المنهج التاريخي في النقد الأدبي الحديث.

وتبعاً لذلك يمكن تصنيف بعض الكتب النقدية العربية القديمة ضمن مسار "المنهج التاريخي" وإن كانت قد تحاشت تسمية نفسها بذلك، أو أنها كانت تمارس ذلك دون وعي مسبق بفلسفة المنهج وإجراءاته. إن عمل ناقد مثل ابن قتيبة أو ابن سلام الجمحي وغيرهما لا يمكن أن يصنف إلا في الدائرة التي ألمحنا إليها، فمصادرها في تتبع حياة الشعراء وتقييم أشعارهم كان مبنياً في الأساس على الأخبار والروايات وعلى ذلك راح من سار على دريهم يقنني أخبار ((الشعراء، أزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماؤهم ومن كان يعرف باللقب والكنية منهم وما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره وما أخذ العلماء عليهم من الفلح والخطأ في أنصافهم أو معانيهم وما سيق إليه المتقدمون فماخذهم المتأخرون))¹ وهي خطوات لا تتعد كثيراً عن المراحل التي يعول عليها في المنهج التاريخي.

إذا كانت بوادر المنهج التاريخي قد تجلت في بعض الكتابات النقدية العربية ولا يستبعد وجودها في آداب شعوب أخرى، فإن العصر الحديث أحدث قراءاته النقدية تقاطعا

واضحاً مع التاريخ حتى أضغى المنهج الأفتقر على مقارنة النصوص بطريقة مستحدثة تتحرى الابتعاد عن النقد الكلاسيكي الذي رمي بالقصور والانطباعية المفرطة وقد اجتمعت له جهود نقاد كثيرين من حقول معرفية مختلفة بدأت نظرية الربط الحتمي بين الإنسانية و الثلاثية المشهورة (العرق - البيئة - الزمان) بالتلويح بتباشيره الأولى، وتوجت بمجهودات الناقد الفرنسي "غوستاف لانسون" (1837 - 1869) حيث جعل دراساته تاريخية. ومن ثم صار المنهج التاريخي يقوم (على مبدأ الشرح والتفسير متعقبا الظواهر الأدبية من عصر إلى آخر، رابطا الأحداث بالزمن مقسما الأدب إلى عصور واصفا كل أدب في إطار علاقته بالصفة الغالبة للعصر. وهو لا يكتفي بالنظر في مؤلف واحد من مؤلفات الأديب، كما أنه يعني بشخصية هذا الأخير، وبتكوينه الثقلي وبيئته السياسية والاجتماعية).² وبذلك غدا المنهج التاريخي يسرّف في الربط بين الأدب والوقائع والأحداث، فاهتم بسياق النص وظروفه واتخذ ذريعة للتفسير والتبرير متوهما فيه القدرة على أن يكون صدق وصورة لحياة اجتماعية واقتصادية معينة. فصار وثيقة لإثبات أدبيته وفرديته بل للدلالة على تأثره بمحيطه وسيره وفق معطياته: ليسمح بعد ذلك لأصحابه الانتقال من الوقائع إلى القيم ومن الأبحاث المتخصصة إلى التأويلات والتركيبات)³ لكنها لم تقها من اعتساف المطابقة بين الأدب والبيئة التي تحيل النص الأدبي على ظلال التاريخ. فتختفي هويته وتتوج الوقائع المحضرة له. إن سلمنا أن ثمة حوافز من هذا النوع.

اضطلع المنهج التاريخي بمهمة مقارنة الظاهرة الأدبية وفق آليات يعي فلسفتها ويتجه لها برؤية خاصة - بغض النظر عن قيمة تلك الرؤية - مشفوعة بوعي نقدي لا يفصل الأدب عن صاحبه ولا عن ظروفه الاجتماعية، و بإيمان عميق مفاده أن لا شيء يمكن أن يخلق من العدم، فلم تجد ضررا في اعتبار ذلك المصدر اجتماعيا واقتصاديا و لئيبا أيضا فأجملت آلياته في أسس لا يخرج عنها من يتخذ من المنهج التاريخي أداة نقدية ومنها:

1 - التاريخ للنص بمختلف جزئياته، بالعودة إلى التاريخ للوقوف على ظروف عصره وملابسات زمانه ومكانه.

2 - اعتبار التاريخ حدثا تاريخيا، يستوجب الوقوف من خلاله على محفزات المبدع، و تحرى تطابق الروايات في إصدار الأحكام وترتيبها، بعد عقد الصلة بين المؤلف والمؤلف.

العدد الخامس 12 مجلة الادب الملوح الإنسانية

13 15

العدد الخامس 12 مجلة الادب الملوح الإنسانية

3 - البحث في تجليات التفاعل بين الأدب والبيئة.

4 - نقض الغبار عن الأعمال الأدبية المغمورة ليكون الناقد قادراً على عقد المقارنات والموازنات لكشف الأعمال المتميزة و اعتبار ذلك من تأثير البيئة المتمدنة.

المنهج التاريخي في النقد العربي:

ظل المنهج التاريخي وثيق الصلة بمسار النقد العربي منذ أن بدئ بالتأليف في حقل تقييم النصوص الأدبية، بل إن الوقفات النقدية الأولى التي حاولت أن تقيم مقارنة بين الشعر الإسلامي والشعر الجاهلي هي من صميم المنهج التاريخي لاعتمادها في إصدار أحكامها على دور البيئة والمجتمع وما اعتاره من تغيير من حقبة إلى أخرى، وتأكدت الوجهة نفسها مع جماع الشعر وتصنيف الشعراء بعد تتبع أخبارهم من خلال الروايات الشفاهية، ولم يشذ على ذلك إلا قلة لا يمكن الاعتماد بها لعدم شهرتها، وذلك أمر طبيعي إذ كان الهم الأكبر لدى النقاد الجمع خشية الضياع.

عاود النقد العربي الحديث الاحتفاء بالمنهج التاريخي، وإن كان هذه المرة أكثر دقة وعمقا متأثراً بصنوه في الغرب، بعد أن بدأت موجه الترجمة والبعثات العلمية تقتفي سبل الأدب الغربي وتستحضر آليات تقدم فكائنا المحاولات العربية الأولى لتطبيقه مع حسين توفيق العدل في كتابه "تاريخ الأدب" الذي أعلن في بداية دراسته إلى أن تاريخ ((أدب اللغة تابع في تقسيمه للتاريخ الإسلامي والديني في كل آن، لأن الأحوال السياسية والدينية تكون في العادة عامة، فإما أن تبع الأفكار وتحرك الأميال لمزاولة المعارف، وإما أن تكون سبباً في وقوف الحركة الفكرية في الأمة بما يلحق السياسة أو الدين من ضعف))⁴. وقد اتخذ ذلك سبباً من تقسيم تاريخ الأدب إلى خمسة عصور رأي فيها تباين وجهة الأدب لتباين ظروف كل عصر. وعلى دربه سار من سمي دراسته بتاريخ الأدب - على غرار ما فعل - الإسكندري في كتابه "الوسيط"، و أحمد حسن الزيات في كتابه "تاريخ الأدب العربي" ومحمد حسن نائل المرصفي وغيرهم من كوكبة دارسي تاريخ الأدب العربي في بداية النهضة العربية الحديثة.

لكن جيلا ثانيا تخلص من جمود التطبيق الآلي للمنهج فمنحه مرونة وقدرة على الفصل - ما أمكن بين التاريخي والأدبي - يأتي في مقدمتهم طه حسين في مؤلفاته المتعددة "في ذكر أبي العلاء المعري" و "في الأدب الجاهلي" و "مع المتنبي" في أعلى هرم هؤلاء.

المنهج التاريخي في النقد الجزائري الحديث:

ظل النقد الجزائري منذ بداية عهده لقراءة الإبداع الأدبي مرجعا المنهج التاريخي دون المناهج الأخرى على كثرتها لاعتبارات ذاتية و موضوعية وضعت الناقد الجزائري في موضع لا يبتعد كثيرا عن الظروف العامة التي صاحبت حركة التأليف في العصر العباسي حين كان المحفز الأول في ملامسة النصوص الجمع والتصنيف لا التمهيص والتأويل.

وجد الناقد الجزائري نفسه مجبرا على الاضطلاع بمسؤولية تعريف الجزائريين بأديهم وتقريب صورة الشعراء و تحبيبها لهم، بعد أن كان صوتهم خافتا لا تطرب إليه إلا النخبة و التي كانت بحاجة هي أيضا لإسماع صوتها في زمن صُمّت الأذان على سماع الشعر بفعل حملات التشويه و التدوين التي اعتمدها المستعمر في سبيل كسر شوكة كل صوت حر ينشد الاستقلال، و يدعو لاستعادة أمجاد الأسلاف ممثلا في أدبهم على وجه التحديد.

و لا يستبعد الحال هكذا أن يكون الاحتفاء بالمنهج التاريخي في النقد الجزائري سائرا ضمن الغاية التي حملها الأدب حين صار أداة للإصلاح و سبيلا لتأجيح العواطف و الأحاسيس رغبة في استعادة الوعي بضرورة النفور من الدخيل والاعتداد بالأصيل و إن تضاءل ديارم و من ثم يصبح النقد نفسه وسيلة لا تقل أهمية عن الأدب في التعريف بشخصياته و الوقوف على ظروفه و ملامساته، وذلك أمر من صميم المنهج التاريخي بل من أسسه الأولى.

إن شغف النقاد الجزائريين بالمنهج التاريخي راجع بالأساس إلى شعورهم بضرورة الاهتمام بأدب تناسته كتب تاريخ الأدب العربي ثم إن عملية مقارنة النصوص الأدبية تأتي لاحقة على عملية الجمع و التصنيف التي يقوم بها المنهج التاريخي. و لا يستبعد من وجهة أخرى مجازاة النقاد الجزائريين للصوت النقدي الأكثر رواجاً في المشرق العربي وبخاصة أن المؤثرات القادمة من المشرق كانت تفتح لها الصدور و تلقفها العقول، بشكل يعكس تلهف الجزائري لكل خبر أو فكرة تشعره أنه معني بها و طرف فعال في جانب من جوانبه. فهو لا

يملك أن يَرُدَّ تياراً ولا اتجاهها وافداً من جناحه الآخر، بل إنه لا يملك القدرة على المواجهة والغريزة ليس فقط لأنه لا يملك القوة الكافية لفعل ذلك بل لأنه أيضاً يُكَنُّ إعجاباً لا نظير له بالشرق، فهو وحده القادر على الإسهام في استرداد ما سلب منه وإشعاره بأنه ليس وحده في التصدي لغريب يعمل على أن يبقيه تابعاً له لا لغيره، ليكون قادراً على توجيهه بالصورة التي يحبها بقاء لوجوده و ضماناً لاستمراره.

لم يجد الناقد الجزائري إذاً بداً من اعتماد المنهج التاريخي أداة نقدية في قراءة المتن الأدبي، فهو على الأقل يمنح إمكانية جمع تراثه من مصادر متشعبة قد تؤول إلى الضياع إن لم يتكفل بتصنيفها وتوجيهها ما أمكنه.

كان ذلك النقد في بدايته مقالات متناثرة تستقر للعمق والدقة والصرامة في تتبع أدوات المنهج، اقتصرت مهمتها في إبداء آراء تتعلق مرة بالمضمون، و أخرى باللغة، حين يجنح أصحابها إلى عدم التقيد بقواعدها. لكن ذلك لا يمنح إمكانية تسميته بالنقد بله الالتزام بالمنهج التاريخي أو غيرم. والظاهر أن ذلك كان نابعا من عدم اتخاذ المشتغلين بهذا الحقل النقدي ممّاً أو شغلاً، إذ كانت اهتماماتهم الأولى تدبيح المقالات الإصلاحية، أو الرد على مراسيم جائزة تحد من حرية التعليم بالعربية أو تمنع صحفاً من الظهور مثلاً، على غرار ما كان يفعله السعيد الزاهري ورمضان حمود أو ابن باديس والبشير الإبراهيمي.

و لعل ذلك ما أخر ظهور كتابات نقدية تلتزم المنهج ولا تضيق ذرعاً به، إلى أن صدر كتاب أبي القاسم سعد الله "محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث" 5، فكانت فاتحة عهد النقد الجزائري بالمناهج النقدية الحديثة. ثم توالى الكتابات النقدية بالآليات نفسها مع مجموعة كبيرة من النقاد، عبد الله الركيبي، عمر بن قبة، محمد مصاييف، شعبان الوئاس، محمد ناصير، و صالح خريفي.

الإحالات:

- 1 - ابن قتيبة: الشعر الشعراء - دار إحياء العلوم - ط2/1986 - ص: 29 .
- 2 - عمارين زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1990 - ص: 123 .
- 3 - رح . البيرس: الاتجاهات الأدبية الحديثة - تر: جورج طرابيشتي - منشورات عويدات - ط2/1980 - ص: 119 .
- 4 - شكري فيصل - مناهج الدراسات الأدبية في الأدب العربي - دار العلم للملايين - لبنان - ط4/1978 - ص: 32 .
- 5 - أبو القاسم سعد الله: شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة - الدار العربية للكتاب - ليبيا - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - ط3 - 1984 .

